# سأكون بين اللوز . . .

حسين جميل برغوثي

بعد ثلاثين عاماً أعود إلى السكن في ريف رام الله، إلى ءهذا الجمال الذي تمت خيانته». نفيت نفسي، طوعاً، عن ءبدايتي» فيه، واخترت المنفى، وأنا ممن يتقنون ءالبدايات»، وليس ءالنهايات»، وعودتي، بالتالي، ءنهاية» غير متقنة.

كان القمر بدراً، والهواء صقيعاً في جنائن اللوز حول بيتنا وأنا أتجول بين الظلال وأتأمل في هذه ءالنهاية». أرجعني إلى هنا مرضي بالسرطان، ووجع في أسفل الظهر مستمر إلى حد الملل. والملل، كما قال عنه كيركيغارد، ءمرعب الى حد لا يمكنني عنده أن أصفه إلا بالقول بأنه مرعب إلى درجة مملة». والمرض، عندي، وجهة نظر في الحياة.

لم يعد لي من مكان في كل هذه ءالانتفاضة» إلا التردد، بشكل ممل أيضاً، على مستشفى رام الله، فهو الآن كعبتي أو حائط مبكاي الأخير. هناك متسع لي بين الولادات الجديدة في الطابق العلوي، وبين ثلاجة حفظ الموتى تحت. أعني بأنني معاق تماماً، وأطوف على حافة الأحداث، في ضواحي الأشياء. مثلاً، في ممرات المستشفى الغريبة، ممرات تسكنها كائنات بقبعات خضراء وأردية خضراء، خبيرة في ءالتشريح»، تمشي وراء عربات عليها مخدرون لم يفيقوا بعد، أو لن يفيقوا أبداً. وفي باب غرفة الطوارئ تتدفق سيارات إسعاف عليها رسم هلال أحمر كالذي كنت أراه خلف الجبال، وجرحى وشهداء، وأنا تائه أسأل عن دكتور أمراض الدم. فترد ممرضة متوترة: ءنحن في حالة طوارئ، ألا ترى؟». فأدرك أنني شخص

زائد عن الحاجة، مريض متطفل يمشي نحو مصيره وحده، بهواجس فردية، لست ءزائراً»، ولا ءمعافى»، ولا جريحاً ولا على وشك الشهادة. بل ءمريضاً عادياً»، أي لفظة حائرة بين قاموسيّ الموتى والأحياء، بين الولادات الجديدة في الطابق العلوي، وبين ثلاجة الموتى في الطابق السفليّ. بماذا يشعر كائن قدره أن ءيراقب»، ممنوع عليه ءالتدخل»، ويشم رائحة الأدوية، بدل الزعفران، بين طابقين؟.

هذا ما أرجعني إلى الريف، إلى جمال سبق وخنته، رجعة غير محكمة الحبكة.

كنت أخطط للعودة من زمن. فزرت جبال طفولتي، ليلاً. كان القمر كاملاً، والصمت شاملاً، بين خرائب ءدير» قديم ومهدم، في قمة جبل بعيد عن القرية. وقفت هناك أتأمل البدايات والنهايات. فجأة حدث شيء غريب فعلاً. سمعت صوتاً يشبه بالضبط بكاء طفل صغير، يأتي من جنائن التين والزيتون المقمرة، وقف شعر رأسي من الذهول، وحدقت في تفاصيل الظلال، والصخور البيضاء، ولم أر أحداً، بدا الصوت وكأنه يأتي من كائن لا يرى في هذا البر الواسع.

مشيت نحوه بحذر، خائفاً ومندهشاً، فواصل بكاءه، ولكنه كان يبتعد كلما اقتربت. أسرعت ولم أصله. قطعت عدة جنائن وكان لم يزل بعيداً عني بنفس المسافة. رجعت من حيث أتيت، وقلت بأن هذه جبال بها شبه الجنون، أو مسكونة بالجن، أو مختلفة، ببساطة. ولكن الصوت لحق بي، واقترب إلى حد محرج ومخيف. حملت عصا واتجهت إليه، وأنا لا أرى غير شجرٍ قصير مقمر. كان في الحقل الأول، ولما وصلت بدا وكأنه يأتي من الثاني، واحترت تماماً. فكرت بأن هذا قد يكون ءضبعاً». ولكن ليس لضبع صوت بهذه الرقة، بهذا الحزن، والطفولية، والشعور الماورائي. على كل، قد يكون ءضبعاً». والضبع يخشى من النار، ويهاجم المنفردين مثلي، وقيل بأنه يرشق بوله على وجه الضحية كي يتخدر حسها بالأشياء. أخرجت علبة كبريت من جيبي، ورجعت نحو خرائب الدير، ووقفت هناك أفكر.

كانت أمي يتيمة، وعاشت زمناً ترقص وتغني في مواسم فلاحي المنطقة. وتبناها عم لها يدعى ءقدورة»، شيخ عملاق وصلب، كان يسكن مع أخيه، على ما أعتقد في هذا ءالدير»، وكانا قاطعي طرق مسلحين، أيضاً. إن اختفت فرس أو بقرة قالوا إنها في ءالدير الجوّاني»، ولم يجرؤ أحد على الذهاب إلى هناك.

في ذات ليلة كان راجعاً إلى الدير على ظهر حماره، ورجلاه تتأرجحان فوق الطريق المقمرة، فلقفت قدمه اليمنى أفعى ءزعراء» (قصيرة وملونة وسامة جداً). نزل، وقفز قفزات متوالية قبل أن تفلت قدمه من نابها، ووصل الدير منهكاً، ومات هنا، حيث أقف، ربما. كانت أمي تقسم لي، وأنا طفل، أنها رأت نفس الأفعى ءالزعراء» تطير فوق الجبال المقمرة وتزغرد لأنها قتلته. ومرة قالت بأنها أفعى لها قرنا ثور هرم، ويتحرك العشب اليابس من زفيرها، وتدعى ءأفعى القصبة».

خطرت ببالي ءذاكرة المكان» هذه، وأنا واقف فوق الخرائب. غرباً، في قمة جبل مغطى

بغابات صنوبر وسرو وبلوط ، تشع أضواء النيون من مستعمرة إسرائيلية تدعى «حلميش» ، عندهم ، و«مستعمرة النبي صالح» ، عندنا ، أضواء باردة ، وكاشفة ، ومحاطة بأسلاك شائكة . وبدت المستعمرة معلقة في الفضاء ، ربما بسبب الضوء أيضاً ، ولم تلمس الأرض ، ولا التاريخ ، بعد .

ماذا يرى مستعمر جاء من روسيا أو أستونيا ، ربما ، قبل سنة فقط ، حين يفتح الآن شباكه ، ويحدق في نفس هذه الجبال التي أنا فيها؟ ماذا يرى ، أو يدرك من هذه الجبال التي تسبح في تاريخها وتبزغ منه؟ لن يرى ، حتماً ، الأفعى الملونة التي تطير وتزغرد فوق الخرائب ، ولن يسمع هذا الصوت الذي يبكي ، ولا هذا السر الذي يجعل حتى مصاباً بالسرطان يمشي فيها في الواحدة ليلاً! لن يلمس التاريخ ، ولو كان عرافاً ، ليس تاريخي أنا ، على الأقل ، ولو كان إلهاً .

وأنا واقف فوق الخرائب تلك ، شعرت بفرق شاسع بين نوعين من «الضوء» : القمر والنيون في المستعمرة . كان الأخير مرتباً ، ومهيمناً ، حاد البياض ، منتشراً حتى وراء الأسلاك الشائكة التي تعزل كل مستوطنة عن محيطها ، أشبه ما يكون بـ «رؤيا مسلحة» ، باحتلال بصري ، ومعمار ضوئي لدولة تهذي حتى في منامها برؤى مسلحة ومضاءة بالنيون . وبدت المستعمرة كلها كتاباً في النفس أيضاً : في العلاقة بين «القوة» و«الضوء»! لم يدرس أحد ، بعد ، العلاقة بين القوة والضوء! .

وبدا لي بأنني أرى «ذاكرتين» معاً : ذاكرة الأفاعي التي تزغرد وهي تطير ، وذاكرة من رؤى وأساطير مسلحة تحلم بإبادة الأفاعي . (أولم يقل إسحق شامير ، رئيس وزراء إسرائيل السابق ، في الإنتفاضة السابقة ، بأن العرب «أفاع»؟) . وبين الذاكرتين ، ذاكرة الضحية وجلادها ، ما يشبه الوادي ، أو «الهوّة» ، صدع عميق ما ، وأنا واقف على شفير هذا الصدع اللامرئي . هل يمكن لهذا الصوت الغريب الذي يشبه بكاء طفل صغير في هذا البر المقمر أن يكون قادماً من أعماق الصدع؟ .

لما رجعت إلى بيتنا سألت خالاً لي ، أكبر سناً مني ، وذاكرة ، عن الصوت قال : «هذا صوت حيوان صغير يدعى الـ«غريريا» . كانوا قديماً يطاردونه بكلاب الصيد والبنادق ، ولحمه لذيذ ، والآن انقرض تماماً . ربما أنك سمعت صوت آخر غريرياً في هذه الجبال!» . قلت لنفسي : لا ، رأيت غريريات أخرى كثيرة في مستشفى رام الله ، كن يلدن ويولدن في الطابق العلوي ، فوق ، أو يحفظن في ثلاجة الموتى ، تحت ، لكن رأيتهن . . .

* * *

أدمنت العودة نحو الدير الجواني ، وكأنني مأخوذ بالوقوف في مهب ذكريات أهلي القدماء هناك ، وأحاول تركيب «بداياتي» ، من «نهاياتهم» . مثلاً ، كنت أحاول أن أتخيله ، عمها ، «قدورة» هذا ، واقفاً فوق سطح الدير ، مشرفاً على أودية عميقة ومقمرة ، وعلى جنائن متدرجة ، محروثة ومزروعة ، وهو يعزف على ربابته . حلفت لي أمي بأنهم كانوا يسمعونه

من القرى المجاورة والبعيدة. أتخيله وقد علق فوق كل جدار من جدران الدير الأربعة بندقية، وصعد الدرج الحجري الضيق، وفرد عباءته تحته وبدأ بالعزف. لا أحب الربابة، بل الناي، وأحاول أن أتخيله، قاطع الطرق هذا، وهو يعزف الناي!.

قيل إن في القصب سراً إلهياً، كان الله سبحانه قد أودعه في صدر النبي محمد، ولم يستطع النبي تحمله فباح به إلى علي بن أبي طالب، وأمره أن لا يبوح به لأحد. ولم يستطع علي تحمله، أيضاً، فذهب إلى واد عميق وبعيد وباح به لقصب ذلك الوادي. من يومها وكل ناي من القصب تصدر عنه نغمة هي سر إلهي ممنوع لفظه بالكلام. وحزن الناي، كما يقول مولانا جلال الدين رومي، حنين الخشب أو القصب الذي صنع منه إلى غاباته الأولى التي قطع منها، إلى ءأصله»، أو ءواديه الأول». فإلى أي أصل كان يحن قدورة هذا؟ وإلى أية بدايات؟.

* * *

من حيث يعزف، فوق سطح الدير، كان تقريباً يستطيع أن يرى قرية ءدير غسانة». أصل قبيلتنا، وأصله، من هناك. الأصل الأقرب، على الأقل.

مرة اختلف شيوخها معاً، فتسلل جد جدي، في ليلة مقمرة كهذه، إلى بيت كانوا ينامون فيه، وذبح إثني عشر رجلاً من أقاربه هناك. ثم حمل خيوله وجماله ونساءه وأولاده، وهرب إلى هذه البقعة النائية التي سأولد فيها، بعد قرن ونصف على ءهذه البداية».

وقدورة من هذه ءالسلالة» الهاربة. وأخوته أربعة، بعدد بنادقه التي علقها على جدران الدير. وكان ءكايد» أكثرهم سطوة، وسكن معه في الدير الجواني.

قيل بأن كايد هذا، ذات ليلة، كان يركب فرسه البيضاء، فمرق صدفة أمام ديوان حمولتنا، حيث كان شيوخها يسهرون، فرأى قدورة خارجاً من هناك يزفر غضباً لأن أحد الشيوخ قاطعه عند الكلام. دخل كايد وأمسك بالشيخ من قميصه وقال له: ءكبرت قرونك في غيبتي، وأنا من سيكسرها».

وكان ساعد قدورة الأيمن. مرة تسلق بالحبال أسوار قلعة لشيخ كبير في المنطقة، وفتح البوابات من الداخل، ليلاً، كي يسوق الخيل والبقر معاً، فاستيقظ الحراس وقبضوا عليه، وسجنوه. ولما وصل الخبر إلى الدير الجواني، قالت أخته: لا تخافوا عليه، بل على ماذا سيحدث للقلعة. وبعث قدورة بقصاصة ورق تنذر الشيخ بإطلاق سراحه في ثلاثة أيام، وأطلق سراحه.

ليس غريباً أن جنازة كايد هذا كانت خاصة: عندما شاع خبر موته في ذات ليلة خرج نفير من رجالات قريتنا إلى السطوح والساحات، وبيد كل منهم عصا عليها خرقة مبلولة بزيت الزيتون أو القار، وأشعلوا المشاعل، ورقصوا حتى الصباح إحتفالاً بموته.

وأما قدورة فعاش زمناً بعدها حتى مات بلدغة الأفعى التي تزغرد، وتشردت ثلاث ءإناث» كن في حمايته: زوجته، وأمي، وربابته.

زوجته كانت مدمنة على شم الـ ءسعوط»، وسميت، بالتالي، ءسعوطه». تركت الدير

الجواني الذي بدأ يقفر ، وسكنت بيتاً حجرياً في القرية على النمط الصليبي : بوابته من خشب ثقيل ، وجدرانه وسقفه أشبه بقوس حجري واحد ، وكله يشبه نفقاً بدا لي ، وأنا طفل ، بلا حد . كانت أمي تبعثني للنوم عند سعوطة فيه ، أحياناً . استيقظت مرة على ضوء سراج شاحب ينتشر بصمت في أرجاء هذا المكان الأشبه برحم غريب ودافئ ، وكانت تلهث ، وتشم السعوط ، وتتمتم أدعية وتعاويذ غامضة .

قيل بأن الجنين يسمع صوت الدورة الدموية في رحم أمه وكأنه هدير بحر ، وبعد الولادة يغفو على أي صوت يشبه هذا الهدير الرحمي ، أي الإيقاع الأول . كنت أشعر بهذا الايقاع في صوتها ، وذبذبة شعلة السراج تزيد الإيحاء . كانت واقفة كالأم الأولى ، أمنا الأرض ، وعلى رأسها لفة قديمة باهتة الألوان ، مطرزة بسلاسل من عملة فضية عثمانية ترن كلما حركت رأسها ، وعلى ذقنها وفوق شفتيها العريضتين وشم أخضر غامض يقترب من الكحلي . ومشت ببطء نحو البوابة ثم نحو السراج ، ووقفت تفكر في شيء ما . والدنيا مطر في الخارج ، وريح .

كانت أصبحت ، بعد موت قدورة ، ءداية» القرية . يأتونها حتى في مثل هذا الوقت ، كي تسخن الماء في إناء نحاس على نار موقد ، وتتمتم أدعية عن فرس أصيلة سوف تنهض بالسلامة ، وتسحب الوليد الجديد من رحم أمه . كم كنت أحاول أن أفهم ليل الولادات الجديدة هذا ، وماذا تفعل ءسعوطة» فيه ، وكيف تعيش من هذه المهنة السحيقة . وفي الميلاد لغز ، كالرحم ، والأم ، ومشاعر ءسعوطة» نفسها .

انتهت ءسعوطة» مهانة ومذلة ، عندما وضعتها ابنتها الوحيدة في ملجأ للعجزة في رام الله ، لأسبوعين فقط ، وانكسر شيء في روحها ، ولما استعادتها من هناك ، ماتت بعد فترة قصيرة ، وأغلق بيتها الصليبي إلى الأبد ، حتى انهار هو الآخر .

وأما أمي ، فهجرت ءالدير الجواني» ، هي الأخرى ، ووقعت في حماية أقرباء ليست فيهم لا رجولة قدورة ولا كرم روحه ، وقالت لي ، مرة ، بأن الله بنى سوراً حول قلبها ، ولم تعد تشعر بأحد ، أيامها ، أو ربما ءمن أيامها» . وأحبها أبي ، رجل من نفس سلالة قدورة ، وفيه نفس ءالعرق» ، وربما نفس اللعنة العائلية ، وأراد الزواج منها ، ولما رفض أقرباؤها دعى صديقاً له يدعى يحيى ، وقعدا في باب البيت ، وفي حضن كل منهما بندقية ، وقالا بأنهما سيقتلان ءكل من تخول له نفسه أن يتزوجها» . ولما فاز بها سافر في ءشهر عسل» إلى عمّان ، ثم عاد وزرع لها الجنائن حول بيتنا باللوز .

بعد عقود انتهى يحيى سائق شاحنة بين الأردن والكويت ، في هذا الطريق الصحراوي الذي تصل الحرارة فيه ٤٥ درجة مئوية في الظل . طريق مستقيم يمتد إلى الأبد . كان يضع حجراً على ءدعسة البنزين» ، ويربط المقود بخيط كيلا يتحرك ، وتمشي الشاحنة وحدها . وفي يوم ما وجدوه ميتاً في الشاحنة ، وهي تمشي به وحدها ، ربما باتجاه حقول النفط .

* * *

لم يمت قدورة كله حين لدغته الأفعى الزعراء : بقيت ربابته ! ولم أزل أسمع أصداءها في

الفراغ الذي يفصل «بدايتي» عن «نهايته». ليتني أقدر أن أخرج فيلماً يدعى «سيرة حياة ربابة».

ورثها أبي عنه، وغنى عليها حتى سنة ١٩٤٨، ولم يعد يغني أي شيء في حياتي، ولا يلفظ أية لفظة قد تشير إلى أي حس عنده بالغناء. كان وكأنه قد نسي صوته تماماً. وأعطى الربابة لأخ له مشهور بصمته. يتربع أمام بيته إلى الأبد، ويدير بصره في الجبال المفتوحة، حتى اشتهر بحدّة البصر، أيضاً. إن ضاعت فرس قالوا ابحثوا عنها في الجبل الفلانيّ، وإن زرع أحد حقلاً بعيداً بالخضار قال بأنه رأى غزالاً يقضم ما زرع.

قيل إن صوته من أجمل أصوات منطقة رام الله قاطبة، ولكنه اختار الصمت لسبب ما. مرة سألته عن أسعد أيام حياته فقال: «عندما كنت ألعب بالتراب بطاقيتي وأنا صغير». وصدأت ربابة قدورة عنده، وتحلل وترها من كثافة الصمت. مرة واحدة فقط سمعته يغني، في خلال أربعين سنة، وليس لأكثر من برهة، في عرس ابنه.

كان ديوان قبيلتنا مضاء ليلتها بمصباح كبير، وبفرح، وبقهوة عربية، وكان غناء نساء يأتي من بيت قريب، بيته، وكل كائن بدا فرحاً، إلا هو، كان وكأن قوة فيه تربت على مقاومة الفرحة. وكان قاعداً في صدر الديوان، في عباءة خردلية، وعقال أسود، ووقار يليق بشيخوخته، ويدير بصره في ملامح الحضور بصمت، وكأنه يتأمل امتداداً آخر للجبال. فجأة بدأ الكل يصمت، ولو وقعت إبرة لسمعت رنتها، ثم قام شيخ واقترب منه، وحلفه بالله وفرحة ابنه أن يغني. كنت قربه، ولاحظت رعشة لاشعورية في أخاديد وجهه رقص منها «خال» داكن قرب أنفه. أغمض عينيه لمدة، ثم سمعت صوتاً لم أسمع شبيهاً به في حياتي:

«جبولي العرق بيضا في كأسة وقالوا لي: افرح. بعد ما شاب رأسي».

ولم يكمل. ولم يكسر أحد الصمت ليقول له أكمل.

* * *

والصمت موسيقى. هذه حكمة قديمة، ولكن قلة تعرف أن الصمت أنواع. في الدير الجواني نوع غريب من الصمت، والدنيا قمر، والهواء صقيعي. مثلاً، أمام مغارة رومانية ذات باب صغير ومستطيل كان فيها، قديماً، حوض ترسبت فيه مياه فوق هياكل عظمية متحللة، وجماجم، ودمره لصوص الآثار بحثاً عن الذهب.

وصلت إليها عبر طريق قصير فيه حرش صنوبر وسرو وزعتر بريّ. صمت شامل، وقمر، ورأس صنوبرة يهتز من نسمة خفيفة. فجأة سمعت «عطساً»، عطساً مكتوماً وخافتاً، ليس لإنس ولا جن. وكان يقترب مني، فوقفت محتاراً. وفي لحظة أسرع من حلم رأيت قطيع غزلان يعبر الطريق، ويتقافز ويعطس، وكل غزال يبدو معلقاً في الفضاء لوهله ثم يقع، كنت كأنني أرى قطيع ظلال غامض، والشجر كان داكناً، ولكنه أوشك أن يغني. ثم حل صمت مخيف، وكأن شيئاً لم يكن، صمت أشبه ما يكون بمرور زمن سحيق على جمال ساد ثم باد.

وقفت كمن وقعت على رأسه الطير، ثم خطر ببالي أن صياد غزلان قد يكون نصب «فخاً» لها، ولي، من هذا النوع الذي يكسر حتى عظم الفخذ، وسأقع فيه، أو قد يكون هناك ضبع

فرت الغزلان منه، ويكمن الآن خلف صخرة أو عرق شجرة.

لا يستيقظ في العزلة إلا ما هو كامن فينا أصلاً. واستيقظت فيّ وساوس كثيرة. أمامي مرج واسع، محروث، خال، مقمر، ويمتد حتى أسوار الدير. والإنسان، أي إنسان، يخاف من الفراغ. خفت العبور في المرج مكشوفاً من كل جهة. هناك غرسات زيتون صغيرة، أشبه بالظلال الداكنة، بدت لي تشبه رهبان الدير القدماء، وهم يلبسون السواد، ويغنون لـ «ساكن العالي» :

«من هالمرج الواسع
إيدينا مرفوعة
زي الشجر العالي».

أعني أن هناك طاقة روحية خاصة تطفح من هذه البقعة، وإن فقدت تركيزي، أو نمت، ستستيقظ «قوى المكان» الكامنة، وكأن كل شيء فيه، حتى الحجارة، حانت مواعيد عودته للحياة.

عبرت المرج وكأنني مخدر، أو منوم مغناطيسياً، على هذه الحافة بين اليقظة والحلم، بين السحر والوقائع، في حقول الصمت الشامل، هذا النوع من الصمت الشامل. لا أحب أن يكون معي أحد هنا. فالإنسان كائن قادر على لفت نظر الآخرين إليه، وأريد المشي هنا منسياً، لا أنتبه إلى أحد، ولا ينتبه إليّ أحد، لأواجه وساوسي وحدي.

وصلت باب المغارة، ووقفت. شعرت وكأن هناك جماجم أجيال تتقلب تحت العتبة. وشعرت بأن الإنسان ظل خفيف ومقمر يتأرجح بين قوتين : قوة الهيكل العظمي المسجى في حوض ماء من أيام الرومان، وقوة تصعد به نحو الأعلى، كالسرو والصنوبر والغزلان والزعتر البري. وتتكاثر حوله، في مرج الظلال المتوسط هذا، حكمة الثعالب، كما قال محمود درويش، حكمة تهتف به أن عش لجسمك، لا لوهمك، عش للحمك، لا لحلمك!.

وكنت منهكاً. فالسرطان إطلالة على جبلين في ناحيتين مختلفتين : جبل اللحم غرباً، والحلم، شرقاً، جبل الجسم، تحت، والوهم، فوق. ورفعت يديّ مثل الشجر العالي من هذا المرج الواسع، كي أبدو كزيتونة، لا ككهف. وربما بدوت مضحكاً، ولكن من قال بأن هذا ليس حلماً أو وهماً أو صلاة، فلا توجد سماء أقرب إلى الأرض من سماء الدير فوق الجبل، «هون السما قريبة
وبتسمع منا يا حبيبي».

وفينا كلنا قوة وراء الفيزياء. قعدت بعدها على سور الدير أمام المرج، ولكن، كما قال مولانا جلال الدين رومي، لن أقعد هنا كي أعدد بركات لا تفهمها الرياضيات.

* * *

وللمرج لونٍ الملح الأبيض، ويشبه بلورات قمرية تكاد تشف عمّا في باطنها. وبدا لي أنني أرى فيه طريقاً بثلاث شعَب، كما في حكايات أهلي عن الجن :

طريق ءالوضوح»،
وطريق ءالغموض»،
وطريق ءاللاعودة».

كانت أمي تقول بأن الغولة تقعد على مفرق طريق بثلاث شعب، وتضيء ءسراج الغولة» (حشرة على رأسها نقطة مضيئة من الفوسفور وتطير ليلاً، فتبدو سراجاً هائماً، أو عيناً من أعين المكان)، كي تغري به التائهين. وتطحن ملحاً، وأثداؤها مردودة إلى الخلف على كتفيها. الغولة تموت إن ضربتها بالسيف ضربة واحدة، ولكن، إن ءثنيت» عادت إلى الحياة، ولذا، إن قالت لك ءثنّ»، قل لها ءأمي معلمتنيش». هذه كانت وصية أمي لأميرها الصغير، الذي لم يكن يملك، بعد، إلا سيف خشب.

ولكن، في أية شعبة مشيت، في بداياتي؟ ليس في طريق الوضوح، فقد عشت تائهاً ثلاثين عاماً، وليس في طريق ءاللاعودة»، فقد عدت إلى الدير، وبالتالي، مشيت، حتماً، في ءالغموض».

* * *

والهدم نملة!

كنت أحسد الرعاة على حريتهم وبراريهم، وأحلم، وأنا طفل، بأن أكون راعي إوز، أو حجل، أو غزلان. وسبب ذلك حكاية أمي عن أمير كان يملك قلعة فيها ما لذ وطاب، وفيها كثير من البهم والدجاج وأبراج الحمام. ولكنه كان بخيلاً. وفي ذات يوم مرّ عليه سيدان غريبان على فرسين: سيدنا ءالخضر الأخضر»، وسيدنا المسيح. وعزّ عليه أن يذبح لهما من غنمه أو طيوره، فذبح طفلاً يتيماً كان في حمايته، وطبخه باللبن، وقدمه لهما على صينية. نهض سيدنا الخضر وقال ءقم يا ذبيح اللبنية». فانتفض اللحم المطبوخ ونهض الطفل أمامهما. فدعى سيدنا الخضر الله سبحانه أن يحول كل أغنام الأمير إلى غزلان، وكل دجاجه إلى حجل بري، وكل حبشه إلى إوز في الجبال.

وهكذا كان. أما الليل فساد الأرض منذ لحظة ذبح الطفل، والنهار منذ بعثه حياً يرزق من صينية اللبنية. وتخيلت ذلك الطفل الذي تركت ءحكايات أهلي عن المكان» مصيره غامضاً، راعي إوز أو غزلان أو حمام بري. أردت بأن أعيش معه، ولما كان حلمي مستحيلاً، فقد صرت أحن إلى مرافقة من يشبهونه: الرعاة!.

ألححت على أمي فاشترت لي شاة حمراء، وشيطانة، وأخف من غزالة في الهرب مني، وبحجة رعيها صرت صديق صاحب أكبر قطيع في الجبال. وقبلني ءعلي الراعي»، لأنني كنت أرعى قطيعه كله، وليس لي فيه إلا شاة حمراء.

كنا نخرج من القرية في أول الصبح، والندى متجمد ويلمع فوق العشب كنذف الثلج، والهواء بارد. وفي عز الظهيرة ـ وهي، عند الرعيان، الوقت الذي يصل فيه ظل عصا مزروعة في الأرض إلى أقصر مدى له، فيكاد يختفي في العصا ـ ءنورّد» القطيع إلى ءقتيلية».

وتلك عين تبعد مسيرة ساعة عن الدير الجواني، إلى الجنوب، وتنبع من شق في أسفل صخرة عظيمة لا يتسلقها إلا شجر العليق والبلوط أو كلب خفيف، وحولها بساتين مروية من كل ما يلذ ويطيب من الفواكه، كل صنف حسب موسمه، خوخ، وتفاح، ومشمش، مثلاً. أتمدد في الفيء فوق الصخور، وأغمض عينيّ لأسمع بقبقة الماء حين يصب من النبع في بركة برية، قبل أن يتوزع في البساتين. وعلي الراعي تحت الخروبة على حافة الواد يعزف الناي، ولكن بفمه فقط، ولا ناي في يده، وأذهلني ذلك.

وعلي شاب أسمر لفحته الشمس، وجسمه مشدود كرجل غزال، ويعرف رائحة وطعم كل نبتة في الجبال، فهو وريث «سلالة الرعاة» في هذه المنطقة، منذ استئلاف الماشية في العصر الحجري حتى الآن. حلب الغنم في إناء من الألمنيوم، وعصر فوقه قطرات من «حليب التين» (سائل أبيض، حمضي، إن لمس الأعين التهبت بحدة، وينز من عرق ثمرة التين المقطوعة عن أمها وهي لم تزل فجة)، فتخثر حليب الغنم إلى جبن لذيذ جداً، بمذاق التين.

وعلي لا يعرف إلا البراري، حتى أسماء أخوته وأخواته أسماء طيور، مثل «عصفور»، و«عصفورة». ويحب ثلاثة أشياء : بندقية الصيد، والناي، والكلاب. ولكل شيء طقوسه. مثلاً، كان لا بد له أن يسرق الكلب وهو لم يزل جرواً، ثم يقص أذنيه وذنبه ويعقم جروحه بالخل والليمون وبعض الأعشاب. «عندما سيشتبك مع ذئب أو ضبع أو كلب آخر، قد يمسك به الذئب، مثلاً، من أذنيه أو ذنبه. ومن الأفضل أن يكون بلا ذنب أو أذن!». بعدها يدربه على شيئين : العنف المطلق، والطاعة. يصفر له فينهش كل من أو ما يشير إليه، ويصفر له صفرة أخرى فينام تحت أقدام صاحبه كخروف.

في يوما ما قال بأنه سيحتفل بي. فصنع فخاً من حبة قمح : نقعها في الماء حتى انتفخت، وخرمها بإبرة، وأدخل في الخرم خيطاً فصارت تشبه صنارة صيد. وفي أول الصبح في القرية رأى دجاجة في الحارة فرمى الحبة أمامها، فابتلعتها، ثم سحبها وراءه بالخيط، وهي غير قادرة لا على لفظ حبة القمح من حوصلتها، ولا على الخلاص من الخيط، ولا على القوقأة. وفي الليل، حول العين، شواها على النار.

كان القمر ليلتها قرصاً أحمر يطل من آخر الأودية، والبهم هنا وهناك، تمشي أو تنام بين الظلال. تعريت تماماً، ثم نزلت أسبح في البركة. وعلي يعزف الناي بفمه. فجأة قال بأنني أسبح في الدمع! قديماً، قبل أن يولد هو، قال، كانت هناك امرأة جميلة جداً قتلها أهلها، وكانت مظلومة، فتحولت إلى حورية تسكن في الينابيع البرية. وسكنت هذه العين فسميت «عين القتيلة». وتخيلت الشق الذي تنبع منه العين في الصخرة عين حورية تبكي فيتجمع دمعها في بركة كبيرة ثم يتفرع في قنوات تروي البساتين من حولنا.

كانت ظلال البساتين، بسبب ضوء القمر، توحي بمخاوف شتى، وعلي يعزف بفمه نغماً غير مألوف، والواد بدا طريقاً ملتوياً مضيئاً كطريق التبان، وأما الجبل فبدا امرأة نائمة تحت القمر. وقف، وكأنه شم رائحة ذئب أو ضبع، على صخرة قرب الخروبة، والبندقية في يده،

وصفر، فجاءت الكلاب والتفت حوله. صمت. صمت خاص وشامل، لولا أزيز الصراصير تحت الخروب وفي الواد.

وتذكرت حكاية أبي عن تاجر كان يبيع الخوخ والمشمش على ظهر حماره، ينزل منحدرات الجبال إلى حيفا، ويافا، ويرجع بعد مدة. كان راجعاً في الليل، ومعه «كاز» من يافا، فأخذ ضبع يتحرش بحماره، وكلما حك الضبع جسده بالحمار رشق التاجر عليه رشقة «كاز»، وأخيراً رمى عليه بعود كبريت مشتعل، فاشتعل، وركض في الجنائن كمشعل مسه الجنون، ودبت حرائق خلفه وحوله. الضبع أسطورة الجبل. قيل بأنه يخطف عقل الرجل التائه المنفرد، فيلحق به وهو يهتف: «يابا! يابا». وكأن هناك لحظة يتحول فيها الأب إلى ضبع، والضبع إلى أب، لحظة كل من تمسه يدعى «مضبوعاً». ويركض المضبوع خلف «أبيه» فلا يستيقظ من حالته إلا عند باب مغارة الضبع، عندما يصطدم جبينه بأعلى باب المغارة، فيسيل دمه على جبينه ويعرف أنه كان يلحق ضبعاً لا أباً، ولكن الوقت متأخر، وبعد قليل سيقولون «أكله الضبع».

ليس غريباً، إذن، أن يقف علي الراعي على الصخرة، ويصفر لكلابه، وفي يده البندقية. فعلي الراعي، كهذه الأفعى التي تزغرد وهي تطير، أو كالضبع، أحد أبناء هذا الجبل، ومن نفس ترابه، ويشبه نغماً فيه ناي حزين، وفيه نفحة البراري الموحشة، أيضاً.

كبرت، وتركت علي الراعي لبراريه. ولم أسأل عنه ولا مرة إلا عندما أصبت بالسرطان، وبدأت أتسلل إلى جبال طفولتي سراً كي أعود إلى السكن في ريف رام الله، إلى «هذا الجمال الذي تمت خيانته». قيل لي بأن المخابرات الإسرائيلية اشترت له كلبي صيد من تل أبيب، وتسللت إلى قلبه عبر حبه البدائي والغريزي للكلاب. ولم يدر أن الكلب يمكن أن يكون «فخاً»، كحبة القمح. وفي ليلة ما، قبل الإنتفاضة الحالية بقليل، سمعت بأن أحد أقاربه طرق بابه، وكان يسهر عنده دائماً، ولم يساور علي الراعي أي شك غريب عندما فتح الباب وخرج، ففوجئ بمسدس من العيار الثقيل، مسدس ابنه بالذات، يمتد إلى صدغه ويفجر رأسه بطلقة واحدة، لأنه «جاسوس».

أعرف الشاب الذي اغتاله، فقد كان يأتي إلى بيتنا في «بيرزيت»، ونسهر معاً، ولم يدرك أنه قتل أيضاً «بقعة في ذاكرة طفل» كنته في ذات يوم. هل أسجد أمام القتيل، وأقبّل القاتل، كالأب زوسيما في رواية «الأخوة كارامازوف»، أم أواصل العودة، سراً، إلى جبال طفولتي المقمرة، وأتجنب بقعاً كاملة كنت فيها «راعياً»، وطفلاً، ذات يوم؟.

صادر الإسرائيليون طفولتي، على أية حال: الجبال المحيطة بعين قتيلية. وفوق الجبل الذي كنت أسبح في بركته، وعلي الراعي يقف تحت خروبته، بنوا مستعمرة مضاءة بمصابيح صفراء، وكاشفة، ومحاطة بأسلاك شائكة. الجبل، يا سارية، الجبل! وكأن الذاكرة تهب عليّ، بدل أن أعود إليها. وصرت أتجنب هذه النواحي. ولم يبق لي غير «الدير الجواني».

في مستشفى رام الله، وأنا أرقب عربات عليها مخدرون لم يفيقوا بعد، أو لن يفيقوا أبداً،

وأنا تائه أبحث عن دكتور أمراض الدم، وذهني مثل رأس مليء بغيوم بيضاء من الأدوية، عانقني شخص غريب.

«أتذكرني؟». «متأسف، لأ!». «أتذكر عين قتيلة؟». «نعم.» «أتذكر صبياً صغيراً مثلك كان يحرس البساتين، ويسبح معك، وعلي الراعي يعزف الناي؟ أنا هو، ابن صاحب البساتين». «والبساتين؟» «أصبح المستعمرون ينزلون إليها من رأس الجبل ويطلقون النار علينا. وشقوا طريقاً ترابياً من المستعمرة إلى الواد. هربنا، ولم نعد. والبساتين صارت ولائم للخراب!».

الهدم نملة. هذا أكيد.

* * *

مثلما قلت، كان أبي قد زرع جنائن بيتنا باللوز، في سنة ١٩٤٨، سنة زواجه. كان ظهري يتلوى من الوجع كأفعى، بين ظلال اللوز المقمرة، وصرت أنسى، يا إلهي كم صرت أنسى، بسبب العلاج الكيماوي. وفي ليلة ما لاحظت بأن اللوز بدأ ينور، في طرف فرع صغير للوزة قرب البئر. وبدا النوار فراشات بيضاء، توالدت من ضوء القمر ـ في معتقدات العرب قبل الإسلام أن أي أنثى تتعرض عارية لضوء القمر تحبل منه، وبالتالي، كن يطفن عاريات حول الكعبة في موسم الحج، وأياديهن على عورتهن، وينشدن:

اليوم يبدو بعضه أو كله
وما بدا منه فلا أحلّه!

وكل لوزة، عندي، أنثى عارية في موسم حج وثنيّ ـ. حدقت في هذه الفراشات، مقتنعاً لسبب غامض، أنها ولدت كي تقول لي سراً قديماً، وثنياً، ربما، من أسراري الأولى.

مرة قالت لي أمي: إن لم تستطع كتمان سر ما، احفر حفرة في الأرض وقله لها، ثم أهل عليه التراب، ادفنه فيها. وسوف يعود إليك حين يأتي الربيع: كل نرجسة أو عشبة تبزغ من تربة تلك الحفرة سترجع السر إلى سطح الأرض، ولن يقدر على سماعه إلا أنت!. وقفت في وسط الجنائن، وحاولت أن أتذكر أي سر دفنته، وفي أية حفرة، وأية نبتة ستعيده إليّ.

هناك لوزة يابسة ليست أكثر من جذع داكن، يتفرع إلى شعبتين ذاهبتين في الفضاء المقمر الواسع. هيئة الجذع هذه كانت توقظ فيّ شعوراً غامضاً، أو، ربما، حدساً بسر قديم. عادة ما كانت ترافقني قطة لا تقل غرابة عن الجذع: مرقطة ببقع بيضاء وسوداء، وكأن لونها صدى لهيئة الجذع، أي يتفرع إلى «لونين». وغرابتها تكمن في طريقة مشيها: تمشي بين قدميّ حتى أتعثر بها، أحياناً، وأدوس على ذنبها فتقفز عالياً، وتموء بحدة. ولكن إن حاولت لمس فروتها هربت، ولست أدري في أي روح من أرواحها السبع، فالقطة في حكايات أهلي بسبع أرواح، تخفي غريزة البراري التي لا تثق بالناس. تهرب متراً أو مترين أمامي، ثم تستلقي على بطنها، وتتقلب، وتحدق فيّ. أومن أنها تريد أن تقول لي شيئاً ما، بالحركات، بدل اللفظ، والمواء، بدل اللغات السائدة. وفي ذات ليلة قفزتْ عالياً، وتسلقتْ ذلك الجذع اليابس، الأشبه بلوحة

تجريدية بثلاثة أبعاد، ووقفتْ على رأس شعبته اليمنى، ونظرت نحوي، تحت، ثم نحو القمر. وتجمدتْ تماماً، وكأنها صارت تمثالاً.

أشحت ببصري عنها مفكراً في ما الذي تريد قوله، وعندها لاحظت بأن اللوز بدأ ينور. لمست النوار، وشممته، وشعرت بأنني أنا أيضاً سأنور، في يوم ما.

من عادات أمي أن تخرج نحوي بين ظلال اللوز، وتسأل: «كيف صحتك؟»، فهي مقتنعة بأنني أخفي عنها مرضي. وليلتها سألتني: «كيف صحتك؟». قلت لها بأن اللوز بدأ ينور!. وكان ذهولي شاملاً حين أشارت إلى تلك اللوزة قرب البئر وقالت: «هذه أول ما ينور». «لماذا؟». «زرع أبوك هذه الجنائن باللوز في سنة زواجنا. وكنت أشعر بالغربة في بيتي الجديد، فذهبت إلى الدير الجواني، وجئت من هناك ببذرة لوز واحدة، وزرعتها بيديّ هنا، وهذه أول ما ينور، بذرتها من الدير الجواني!». يبدو بأن ذاكرة قدورة، أي ذاكرة أمي القديمة، هي أول ما ينور في ذاكرتها الجديدة. وبدون الذاكرة الإنسان بقايا إنسان.

وأتى الصباح، وكان مشمساً، وكسولاً، وفيه لسعة برد. أحب أوقات دخول الشتاء في الربيع عندنا. جلست منهكاً، بجسم طال تهدمه، في كرسي بلاستيكي أزرق قرب البئر. حولي عشب جديد، وطنين نحل، وحشرات، ودبيب نمل، وبصل أخضر زرعته أمي في حوض بدائي. يا إلهي، نسيت بأن في الدنيا طنين نحل، ودبيب نمل، وعشباً، وبصلاً أخضر وشمساً دافئة. والإنتباه إلى ما سبق ونسيته، أو حتى خنته، هو الورقة الأولى في إرادة الحياة التي بدأت تستعد لكي تولد فيّ.

مرة قرأت قصة عن أختين تسكنان في شقة في بناية قديمة في إحدى المدن، وفوقهما يسكن رسام عجوز. وكلما التقى بإحداهما في سلم الدرج ابتسم وقال: «يوماً ما سأرسم رائعتي. وأبيعها، وأطوف بكما العالم!». شابَ وهو يكرر نفس الوعد، وتعودت الأختان عليه، تعودتا عليه إلى حد نسيان وجوده. هناك من يتعوّد على الأشياء إلى حد نسيان وجودها!.

ومرضت واحدة منهما. كانت تستلقي في سريرها قرب شباك يطل على جنائن من الشجر العاري. والدنيا ثلج، ورياح. وعن شجرة تحت الشباك تسقط الأوراق، واحدة تلو الأخرى. وكانت المريضة مقتنعة بأنها ستموت عندما تسقط آخر ورقة عن هذه الشجرة. وكانت تذبل، بالتدريج، مع الورق، حتى بقيت «الورقة الأخيرة». مر يوم أو يومان، والورقة في مكانها، رغم الريح والليل، والثلوج. وبدأت الأخت تسترد إرادتها في الحياة، حتى شفيت. بعدها نزلت كي ترى تلك الورقة، وتسلقت الشجرة، فوجدتها مرسومة رسماً على أحد الفروع.

كان الرسام العجوز يشعل مصباحه كل ليلة، بعد أن تنام، ويتسلق الشجرة، ويرسم ورقة لا تسقط أبداً.

رجعت الأخت إلى الشقة، التقت به في سلم الدرج، وقبل أن يقول شيئاً، قالت له: «لقد رسمت الآن رائعتك». وأما أنا فكنت أشعر بأن كل ورقة في الجنائن، كل نوارة «بسوم» صفراء، وكل نملة، ونحلة، وحشرة، في صباح دافئ، ليس إلا «ورقتي الأولى، و «رائعة

الجنائن» . فمصيري يولد، والأرض ترسمه .

* * *

نعم، نعم . أعرف أن طريقتي في رؤية الدير الجواني، أو جنائن اللوز، تشبه ءخريفية» . فالدير الجواني زيتونة مباركة لا هي شرقية ولا غربية ويكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، وأنا، والغريريات، والحجل، والغزلان، والأفعى التي تزغرد، وقدورة، وذاكرة أمي، قطرات من زيتها! هذا يدعى ءمد الزيتون في الزيت» . أحب هذا التعبير : ءمدّ الزيتون في الزيت» . سمعته، أول مرة، في الإنتفاضة الأولى، في رام الله، في شارع خال، بعد انتهاء ءجنازة» طفل استشهد . لا أحد في الشارع، وكنت عائداً إلى البيت، فرأيت عجوزاً تلبس ثوباً فلاحياً مطرزاً، يشبه لوحة مرسومة بالخيوط والإبر، وفيها كل لون ممكن من ألوان الفصول الأربعة، وكأنه، أي سطح الثوب، ءورقة لا تسقط أبداً» . ولدى الفلاحات كبرياء، ووقار، ولهذا مدت العجوز يدها إليّ لأنها معدمة، ولكن، بدل أن تشحذ، بدأت تغني :

ء يخليك الله حجر رخام
لا ينزاح ولا ينقام
لا برغبة الحساد ولا بنيّة الحكام
يخليك الله حجر البيت
ويمدّ سنين طويلة في عمرك،
مدّ الزيتون في الزيت» .

وإذا كان الزيتون يمتد في زيته، فإن الجبل يمتد في زيتونه . نعم، نعم، أعرف أن رؤياي نفسها، رؤياي هذه، ءخريفية» أخرى من خراريف هذا الجبل . لم أعرف قدورة أبداً، ولم أره، ولم أسمع ربابته، فهو، عندي، ءخريفية» من خراريف الدير الجواني . وأنا المفتون به لست إلا خريفية أخرى عن خريفيته، رواية عن رواية أخرى، والراوي الحقيقي هو الدير، أي ءهذا الجبل»، لا أنا ولا أمي، ولا قدورة، ولا الربابة .

أدمنت العودة إلى الدير الجواني كي أسأل جبله عن بداياتي فيه . ولكن من الأدق القول إنني أنا نفسي لست أكثر من أسئلة هذا ءالجبل» عن نهاياته الممتدة في نباتاته، وحجله، وغريرياته، وغزلانه، وأفاعيه، وناسه . نعم، نعم، أعرف أن طريقة تفكيري في كل شيء هي ءخريفية» جبلية، من بقايا بداياتي في قدورة حتى بقايا نهاياتي في ظلال اللوز المقمرة . حتى عندما قرأت قصيدة محمود درويش، وأنا طفل،

ءعلى الأنقاض وردتنا ووجهانا على الرمل
إذا مرت رياح الصيف أشرعنا المناديلا
على مهل، على مهل . . . »

تخيلت أنني ملقى على وجهي، مع وردتي، فوق خرائب الدير الجواني هذا، في عز الظهيرة . وستمتد خريفيتي في ءزيتي» ، أعني، مثلاً، في ابني الصغير، آثر .

* * *

لم أدر، قبل ولادته، ماذا أسميه. وفي حلم ما، رأيت أفقاً فيه شفق بسبع طبقات، خلف جبال من الأشواك، جبال الدير نفسها، ولكنها كانت مموهة في الحلم، ففي الأحلام تصير الأمكنة أقنعة للروح، وسمعت صوتاً رخيماً وعميقاً يكرر اسم: آثر، آثر، آثر!.

وهذا الاسم فعل، نعم، فعل، والفعل مهم في الحياة. جاء من نفس المصدر الذي جاءت منه «آثار» و «إيثار». سميته آثر، ولم أدر أنني سأعود به نحو «آثاري»، وما آثرت. هذا الصوت في حلمي، هو صوت الدير الجواني، أو، ربما، دعوته، وفيه موسيقى خفية، ربما أنها صدى لربابة «قدورة» نفسه، من يدري.

كان لديّ شعور بأننا، أنا وآثر، نعرف بعضنا، في حياة سابقة. وتخيلت بأن روح آثر، وروحي، كانا يعرفان بعضهما منذ الأزمنة الكنعانية، وكانا هناك يقيمان بين الرعاة في «أرض الغزالة والأرجوان»، ثم هاما في الزمن، حتى حلّ أحدهما في جسمي، وأما الروح الآخر، روحه، فقد ظل يسكن في المغائر والآفاق، ويراقبني، حتى حان موعد تجسده هو الآخر، فهتف بي من الشفق أن سمّه: آثر.

ولد في شتاء قارص، في مستشفى الهلال الأحمر في رام الله، ورأيت هناك، لأول مرة في حياتي، عملية الولادة: الطلق، آلام المخاض، وحين يتسع الرحم رويداً رويداً ليخرج رأس كائن مرتبك ومربك آخر، وشعرت بأنني أشهد ولادتي أنا، أيضاً، ولادة كائن سيسأل الدير الجواني، في ذات يوم، من أين أتيت؟ ولماذا؟ وإلى أين أذهب؟ والإجابة عند «الهلال» في الجبل! قلت له، لآثر، يومها، «أهلاً بك في أول يوم لك على سطح الكرة الأرضية».

كنا نسكن، أيامها، أنا وهو وزوجتي بترا، في بيت في سفح جبل في بيرزيت، يطل عليه حرش صنوبر وسرو ولوز، نفس أنواع الأشجار التي زرعها أبي حول بيتنا سنة ١٩٤٨. وسيكبر آثر هنا، قرب ظلال ذاكرتي. وأنا وأمه زيتونتان هو زيتهما الآتي، خريفية عنهما.

فوق الحرش كانت تدويّ طائرات هليوكوبتر إسرائيلية، منذ أول يوم له على «سطح الكرة الأرضية». وصار يسمع الدويّ، ويتابع الصوت، ليلاً، بحركة رأسه، تحت إضاءة شمعة خفيفة، وكأنه يتابع «قدره»، أو كأنه زهرة عباد شمس تتابع يوم قيامة. وقلت بأنه سيمشي ليس في طريق اللاعودة، ولا في طريق الوضوح، بل في طريق الغموض، مثلي.

وأول لفظة لفظها، حين تكلم، كانت «طائرة». وأول ذاكرتي، أيضاً، كانت ترحيل أهلي بالطائرة من بيروت، كـ «رعايا أجانب». ولم أدر ما معنى هذه «المفارقات» التي تشتبك فيها حياته مع حياتي. كأنه أنا، أو كأنني هو. حدث، أيامها، قبل سنة تقريباً، أن ذهبنا به، أنا وأمه، بترا، إلى هضبة الجولان، وزرنا مقاماً مقدساً عند الدروز. سألت شيخا درزياً هناك عن معنى كون «طائرة» أول كلمة لفظها على الأرض. قال لي: عندما يلفظ الطفل أول كلمة له، نقول، نحن الدروز، عنه، «لقد نطق». فعبر دورة تناسخ الأرواح، تحل في المولود الجديد روح قديمة ما، وتنطق عبره أول كلماتها، ربما أول ماضيها، أو أول مستقبلها.

ليس عبثاً أن أسئلة آثر كانت أكبر منه، وأغرب من أن يسألها طفل لم يبلغ الواحدة والنصف بعد. فهي أسئلة «الروح التي نطقت عبره»، روح هذه الجبال.

مرة سألني، «حسين، من كب التراب على الجبل؟» كنت أحمله وأطل به على الحرش، ولم أدر بماذا أجيبه، فقلت: «الأرنب، من غير الأرنب يكب التراب على الجبل؟». ومرة أتاني بقلم حبر أحمر وسأل: «حسين هل يكتب هذا القلم شعراً؟» قلت «نعم». قال: «ما لون الشعر؟» «القلم الأحمر يكتب شعراً أحمر، والقلم الأخضر يكتب شعراً أخضر!». ومرة رأى في الحرش بيت نمل، فأخذ يرقص، ويدور حول نفسه، ويغني، ثم قال لي: «حسين، هنا بيت نمل، أرقص، أرقص!»، ورقصت. كنت وكأنني أتعلم الإنتباه للتفاصيل الصغيرة (فالله في التفاصيل)، من هذه «الروح الكبرى» التي تنطق فيه.

وكان من المؤكد أننا جميعاً، أنا وآثر وبترا، سنرجع إلى الدير الجواني، يوماً ما، لا لكي «تكتمل»، بل لكي «تستمر»، خريفية الجبل هذه. وعدنا، فعلاً. وزرنا تلك المغارة ذات الباب المستطيل، وقلنا لآثر إنها «مغارة علاء الدين، صاحب الفانوس السحري»، فدخل إليها وأخذ يلعب، ويقول بأن علاء الدين تأخر في الرجوع إلى مغارته اليوم، وهناك طغى عليّ شعور بأننا، نحن الثلاثة، ولدنا «خارج الزمن».

مرة قرر الفراعنة القدماء تغيير سنتهم القمرية القديمة من ٣٦٥ يوماً إلى ٣٦٠ يوماً فقط. ولم تفهم العامة كيف طارت خمسة أيام من السنة، فقالت بأن الآلهة القمرية، أيزيس، خسرتها في لعبة دومينو مع أحد الآلهة العظام. وكل من يولد في هذه الأيام الخمسة يولد «خارج الزمن»، وإلى حد ما هذا يعني الولادة في «الزمن الضائع»، أو «الزائد عن الحاجة»، وهذا يعني أيضاً الولادة في زمن أكثر قدماً، وأصالة، ولكن الذاكرة نسيته أو تتناساه، وهذا يعني، ثانياً، الولادة خارج «الزمن المستدير»، الدائري تماماً، المتفق عليه من قبل الكل، والولادة خارجه تعني أن المولود ليس جزءاً من «مساحة الدائرة»، ولا نقطة على محيطها، إنه، ببساطة، «خارج الزمن». هل هذه خريفية أخرى؟ نعم، نعم، نعم!.

كنا ثلاثتنا في المغارة لما بدأت أتذكر أصعب أوقاتي. عندما، قبل الانتفاضة الحالية بمدة، شعرت برائحة موت في الجو، ومات وجهي. لا أعتقد بأن أحداً سمع عن «موت الوجوه»، بعد. وجهي مات. قلت لبترا إن علينا، أنا وهي وآثر، أن نهاجر، إلى كندا، ربما، قبل أن تنتشر رائحة الموت أكثر. الفرار! ولكن فلسطين قفص. وبدأت أعرق، في الليل، أستيقظ على ضوء مصباح أحمر خافت، وأنا أنضح عرقاً، حتى أن قميصي قابل لأن «أعصره»، وكأنه كان منقوعاً في حوض ماء. وجع غريب في البطن والظهر، وإنهاك، وفقدان وزن، وشهية، وحكة تحت الجلد، وانهرت. لقد مرض الجبل بالسرطان!.

وبدأت أرجع، سراً، إلى جبال الطفولة المقمرة، إلى هذا الجمال الذي سبق وخنته، رجعة غير محكمة. واكتشفت بأنني ابن الحياة، لا الموت. وشيء في الجبل كان يقول لي، كلما حدقت في الزيتون والأودية المقمرة: حتى ولو بقيت سنتان للعيش، فإن سنتين هنا أعمق من

قرنين ءهناك» . قاوم! هذه الأرض لك، قاوم! كنت واقفاً أمام الشباك، مطلاً على الحرش، والصنوبر واللوز، وخطر ببالي أن بترا، زوجتي، ستنهار إن انهرت، قاوم، لا لأجلك، قاوم. وشعرت بأن الجبل يهتف بي : ءقل لها، مهما حدث، إن زرتني، سأكون بين اللوز! ستكون شمس، ويكون نوار يتطاير في الهواء، وتكون جنائن، ويكون نحل وطريق نحل، وحتى يأتي ذلك الوقت، قاوم» .

قال لي دكتور أمراض الدم، في البدء، قد تكون مصاباً بالإيدز. يا إلهي! سننتهي كلنا، أنا وبترا وآثر. ليس المهم أنا، مرضي وحدي لعبة بين الله وبيني، أما هما! كان آثر يركض نحوي، ضاحكاً، ويميل برأسه نحو اليمين ونحو الشمال، ويضحك: ءأوه، أوه، أوه! حسين، حسين، شوف!» . وأحاول أن أتخيل أنه سيموت بعد سنة أو خمسة، بالإيدز. ويتوقف خيالي. لم أقل لبترا شيئاً، بعد. وتخيلت بأن من الأفضل أن أذهب إلى البحر وأنتحر غرقاً. ولكنه البحر يعيد الجثث إلى الشاطئ. وسيعثرون عليّ. ليس من حقي أن أكون جباناً، ولا أن أهرب هكذا. كنت أفكر في بترا وآثر، ليس فيّ. كنا في مقهى كانباتا، وخرجنا. وضعت يدي على كتفيها، وقلت: إن كنت مصاباً بالإيدز، فأنت أيضاً مصابة! ءليس مهماً، المهم أن نموت معاً» . بترا عظيمة امرأة عظيمة. وهل تحتمل الهزة الثانية؟ ءوآثر سيكون مصاباً» . ءآثر لا. آثر، لا، لا، أنا غير مهمة، أما آثر لا!» .

كانت في مستشفى رام الله ممرضة بحجاب، ووجه ما ورائي، كهنوتي، محايد، وفيه صرامة، وسحبت الدم مني للفحص. وجه لا ينسى أبداً. هاتان الشفتان الصارمتان ستنفتحان بعد أسبوع وتقولا لي قدري كله: ءسلبي» ، أو ءايجابي» ، بكلمة سيحكم علينا كلنا بالإعدام، أو بالنجاة. فلنعدم، لكن لم أرد أن أسمع هذه الكلمة من هذه الممرضة بالذات. وجهها من علامات القيامة، هكذا بدا لي. على الحائط، أمام بنك الدم، لوحة عليها كتبت جملة: ءلا تدخن! ستصاب بالسرطان!» السرطان وردة، نعمة إلهية! أمنيتي أن أكون مصاباً به الآن، لا بالإيدز. ولكن اللوحة تدل على بلادة، على عدم حساسية نحو من هم مصابون بالسرطان. لغة ءالمعافين» ولغة ءالمرضى» لغتان بينهما حاجز.

ومرّ أسبوع يشبه نص رامبو : ءفصل في الجحيم» . رجعت إلى المختبر، عبر بوابات زجاج، إلى ممرضة أخرى بين يديها دستة من الأوراق. ءحسين، أريد نتيجة فحص دم، إيدز» . قلبت الأوراق وأنا في عالم آخر، ولمحت، بالإنجليزية، تحت اسمي، كلمة ءنيغاتيف» ـ أي لست مصاباً. قلت لها ءنيغاتيف يعني لست مصاباً، فش إيدز» . ءنعم» . ءنيغاتيف يعني نيغاتيف، يعني لست مصاباً، صحيح؟» ءصحيح» . ءأي أن نتيجة الفحص نيغاتيف» . زهقت روحها. ولكنني أكملت: ءونيغاتيف تعني لست مصاباً!» . فضحكت وهزت رأسها.

كنت أتخيل بأنني سأرقص إن لم أكن مصاباً، أو أبكي. لكن لا هذا ولا ذاك ما حدث. وجدتني أميل برأسي ذات اليمين وذات الشمال، وأركض في ممر المستشفى، وأهتف : ءأوه، أوه، أوه. حسين، حسين، شوف!» ، أي كنت أكرر نفس كلمات آثر، لقد صرت آثر، ولم

أعد أنا أنا . ورجعت طفلاً، فأوقفني دكتور أمراض الدم في الممر، وأنا على هذه الحالة، وكان محاطاً بمرضى آخرين، فقلت : ءنيغاتيف، يعني لست مصاباً بالإيدز» . قال : ءتقرير المختبر وصل : عندك ليمفوما» (سرطان في الغدد الليمفاوية) . ولكن لا أهمية لذلك، فآثر وبترا خارج اللعبة الآن، وأنا قادر على اللعب وحيداً مع القدر .

خرجت من المستشفى شارداً، لا بكاء ولا فرح، وفجأة وضعت رأسي على عرق صنوبرة في الشارع، وانفجرت في بكاء مر، وقديم، كان جسمي متصلباً إلى حد البلاهة، وذاب في نوبات من البكاء . لم أبك ولا مرة في الجحيم نفسها، ولكن عندما خرجت منها بكيت! جاء دوري الآن لكي أشعر لا ببترا ولا بآثر، بل بنفسي، ونجاتهما .

خرجنا من المغارة . وفجأة مد آثر يده الفارغة إليّ، وقال : ءحسين، خذ علاء الدين، ضعه في جيبك، فالدنيا برد» . فوضعت علاء الدين في جيبي، وأما هو فرفع بيده الأخرى فانوس علاء الدين السحري : ربما أنه كان يتخيل الفانوس من ذهب أخضر خالص يشع في الليل كلؤلؤة في وسط حديقة ورد . ولما وصلنا البيت سألني : ءحسين، هل علاء الدين في جيبك؟» . ءنعم» . ءهل يشعر بالدفء؟» ءنعم، نعم» .

بعد يومين، وكنت أنوي الذهاب إلى الدير الجواني، وكنا انتقلنا جميعاً، أنا وبترا وآثر . إلى السكن في ريف رام الله، قال لي أخي، فادي، إن أحد الفلاحين كان في الدير الجواني، أمس، وكاد يموت . ءكاد يموت؟» . ءنعم . التقى به هناك خمسة مستوطنين، مسلحين، فارتعب، ولكنهم كانوا مرحين، ومعهم ءأراجيل»، كالعرب، وسألوه عن أجمل بقعة هنا لتدخين أراجيلهم» . ءوبعدها؟» . ءقال لهم : ءهنا، هنا أجمل بقعة» .

يا إلهي! فكرت في القصة . لم يكونوا مستوطنين فقط، كانوا من ءفرق الاغتيال الخاصة»، المسماة بـ ءالمستعربين» . يلبسون كالعرب، ويدخنون الأراجيل كالعرب، ومهمتهم تصفية نشطاء الانتفاضة . ربما لاحظوا ءنشاطي»، في زيارة الدير كل ليلة مقمرة، أو لاحظوا آثر وهو يحمل فانوس علاء الدين، أو بترا، وهي، أصلاً، لاجئة من سنة ١٩٤٨، ورأت في الدير الجواني ما كانت تسمع عنه ولا تعرفه أبداً : الأرض، فزحفوا للتصفية! .

جمعت شلة من أصدقائي، صديقة عائدة من تونس، والشاعر كفاح فني، وأنا ـ فأنا أيضاً من أصدقائي ـ، وآثر، وبترا، وذهبنا إلى الدير . أشعلنا ناراً وقعدنا هناك . من مستعمرة صغيرة، قرب مستعمرة حلميش، كانت تأتي موسيقى صاخبة بالعبرية، وعالية، وذات نمط غربي ممزوج بالشرقي . ويقاطعها دويّ طائرات حربية . قلت لنفسي : عمّا قريب، في ليلة مقمرة وواسعة وهادئة قليلاً، سيأتي المستعربون هنا، ويقعدون فوق خرائب الدير، وفوق صمت ربابة قدورة، ويدخنون الأراجيل، وربما ستكون معهم ربابة أيضاً يعزفون عليها، ويضحكون . وسأمر، ليلتها، بعيداً، بعيداً جداً، على الطرف الآخر من المرج المقمر، وأعطس عطساً خافتاً، كالغزلان، سرياً تماماً، ولن يتذكر أحد غيري ربابة قدورة هنا، والدنيا قمر، ولا سعوطة، ولا ذلك الصوت الذي كان يبكي كطفل صغير، ولن تمر الأفعى التي تزغرد .

من يدري، ربما سيسمع المستعربون صوت تلك الغريريا نفسها، والذي يشبه بكاء طفل صغير، وسيطاردون الصدى في جنائن الزيتون المقمرة، سيبدو الصوت وكأنه يأتي من الحقل الأول، وعندما يصلونه، سيبدو وكأنه يأتي من الثاني أو من اللامكان، وسيقولون، حتماً، هذه جبال بها شبه الجنون، أو مسكونة بأساطير أخرى غير أساطيرهم، وحكايات أخرى، غير حكاياتهم، أو، بكلمات أبسط، كائنات من «الأغيار»، ليست من نوعهم. وربما سأكون أنا هذه الغريريا، ولكن ليس آخر غريريا، في هذه الجبال، حتماً.

سألت أمي يومها، «هل تعرفين الغريريا؟». قالت إن حجمها كالقط، تقريباً، ولكنها ليست مستطيلة مثله، بل شبه دائرية. هكذا سيكون شكلي، وسأسكن في أحلام هذا الجبل. وسيحلم بي، حتماً، وسأحلمه. ولكن كيف سيكون حلم الغريريا بالجبل، وكيف سيحلمها الجبل؟ هذه أسئلة لا جواب عليها. ولكن لن يستطيع أحد، ولا حتى مستحضر أرواح، أن يخرجني من حلم الجبل أو يخرجه من حلمي.